

البيان الحجاجي بالمشابهة (تمثيل، تشبيه، استعارة): (نماذج قرآنية مختارة)

The argumentative statement by similar _ Analogy.

Metaphor. The Similar

(Selected Quranic Models)

د/ عماري مالك*

تاريخ الاستلام: 14- 10- 2019 تاريخ القبول: 21- 01- 2020

ملخص: وقفنا في هذه الورقة البحثية تتجه نحو الكشف والتنقيب عن ثلاثة ملامح من ملامح التصوير البياني الملفتة للنظر: التمثيل والتشبيه والاستعارة، من حيث القيمة الجمالية الفنية من جهة، والأثر الحجاجي الذي تحدثه من جهة أخرى وهذا راجع إلى الخاصية المتفردة لتلك البنية التي تشكلها طبيعة البلاغة في حد ذاتها فالصورة البيانية عن طريق المشابهة لا يمكن أن تحصر بحال من الأحوال في جانبها الجمالي فحسب؛ لأن ذلك الانتقال بالذهن من معنى إلى آخر، ومن تلك الغرابة والسعة في التخيل حتما يرفع من درجة جمالية الخطاب وبالتالي طاقته التأثيرية الإقناعية، وإن كانت البلاغة كذلك فلا غرابة أن تكون في القرآن قد بلغت الغاية القصوى في الأهمية

* جامعة عبد الله مرسلي تيبازة، البريد الإلكتروني: ammarimalek.50@gmail.com

(المؤلف المرسل)

والقيمة والمكانة، جعلت من النص القرآني معجزة الله الخالدة وحجته الدائمة، ودليله على نبوة محمد ﷺ .

الكلمات المفتاحية: البلاغة / الحجاج / الجمال / المجاز / المشابهة / الأثر / التخيل / الإعجاز.

abstract : Our position in this research paper is trending towards revealing and exploring three features of the striking graph: Representation, the analogy

and metaphor, in terms of the aesthetic value of art on the one hand, and the heuristic effect on the other. This is due to the unique characteristic of that structure, which is shaped by the nature of rhetoric on the other hand, because the visual image through comparison cannot be restricted in any way to its aesthetic side; Because this portrayal of the scenes and invoking the facts, and moving their minds from one meaning to another, and from that strange and resourceful in imagination, can only be the result of insight, thought and vision. This latter definitely increases its beauty and convincing influence, and if so, the rhetoric is so eloquent, it is not surprising that it has reached the ultimate goal of importance, value and status, which has made the Quranic text the eternal miracle of God, and its eternal courage G, and his evidence of the prophecy of Muhammad May God bless him and grant him peace-.

Keywords: Rhetoric / argument / beauty /Metaphor / similar / impact / imagination / Miracle.

1- مقدمة : كان البحث في علم البيان قد أخذ حظا وافرا في الدراسات الإعجازية لاعتبارات منها : أن أرباب البلاغة وحذاق البيان وعلى رأسهم أحد كبار العارفين شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (ت : 471هـ) اعتبروا أن

الصّور البيانية من تشبيه واستعارة وتمثيل أصول كبيرة، تتفرع عنها جلّ- إن لم نقل كلّ- محاسن الكلام وترجع إليها، وأقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها.¹ ❖، وهذا راجع إلى شيوع هذه الخاصية وجريانها في كثير من فنون الكلام، فضلا عن كثرته في القرآن الكريم وحديث النّبي - ﷺ - وكأنّها جزء أصيل في بلاغة اللغة وآدابها".² والقول في التّمثيل هو نفسه القول في التّشبيه إلى أنّ "التّشبيه عام والتّمثيل أخصّ منه، فكلّ تمثيل تشبيه، وليس كلّ تشبيه تمثيلا".³ أمّا الاستعارة فلا تخرج عن كونها تشبيها حذف أحد طرفيه، ف " التّشبيه كالأصل في الاستعارة وهي شبيه بالضرع له".⁴

ومن منطلق هذا الذي ذكرت تتبادر إلى الأذهان إشكالية مفادها: هل يمكن القول أنّ الصّورة البيانية بالمشابهة في الفكر البلاغي القديم امتلكت مظهرا حجاجيا إقناعياً إلى جانب المظهر الجمالي الإمتاعي الذي عُرِفَتْ به؟ وهل هذه الازدواجية في الوظيفة التي لازمتها استطاعت أن تملك الأفضدة وتستبدّ بالنّفوس؟ ثمّ ما الغاية من التّنوع في ضروب التّعبير عن الفكرة بتلك الطّرق المختلفة؟ وهل هذه الطّرق المختلفة في تأدية المعنى على تنوعها تتفاوت من حيث الجمال والإقناع لخاصية إبداعية فيها، أم لمقام الكلام وسياقه ونموذجه؟ وما الأثر الذي يترتّب عن كلّ هذا التّنوع في طرق تأدية المعنى، أنّ وُظِفَ التّمثيل بدل التّشبيه أو الاستعارة؟ ثمّ ما السّر في هذا التّنوع من ضروب التّعبير عن الفكرة؟

هذه الإشكالات استدعت المزاوجة بين المنهج الوصفي والحجاجي، والمنهج التّداولي الفنّي في بعض مفاصل البحث حينما اقتضت الضّرورة لبعض الإجراءات التّطبيقية.

2. البيان الحجاجي بالتمثيل: التّمثيل وجه من أوجه التّعبير وطرقه يختلف عن باقي الصّور الفنية الأخرى فهو "المثل الأعلى في السّحر، والمنزلة

الرّفيعَة في التّأثير".⁵ والمماثلة كما عرّفها أهل البلاغة هي: "نقل الكلام بأسره إلى معنى آخر شبيه بمعناه الوضعي فإن سار عن ناقله واشتهر، فهو المثل السائر".⁶ وهو عند السّجلّماسي (ت: 704هـ) بـ "أن يقصد الدّلالة على المعنى فيضع ألفاظا تدل على معنى آخر ذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذي قصد الدّلالة عليه".⁷ ويرى بيرلمان أنّ التّمثيل عبارة عن وسيلة حجاجية غير مستقرّة، تأتي كرد على الأطروحات المضادة، وتقوم على مبدأ المقارنة أو دمج النّتائج المطروحة لنقل فكرة مرجعية ذات قيمة بحته.⁸

إنّ أسلوب التّمثيل من أعظم الأساليب التّصويرية بلاغة وحجة فهو الأقدر على "تقريب المراد إلى العقل، وتصويره بصورة المحسوس، فإنّ الأمثال تصوّر المعاني بصورة أشخاص، لأنّها أثبت في الأذهان لاستعانة الدّهن فيها بالحواس".⁹ ولما كان العرب ميالين إلى الدّنيا ومتاعها كان لابد أن يعتمد القرآن أسلوب التّمثيل فـ "في ضرب الأمثال تبيكّ للخصم الشّديد الخصومة، وقمعّ لسورة الجامع الأبيّ، فإنّه يؤثّر في القلوب ما لا يؤثّر في وصف الشّيء في نفسه؛ ولذلك أكثره الله تعالى في كتابه".¹⁰

والتّمثيل على عكس التّشبيه ينتقل فيه الدّهن من صورة التّركيب إلى صورة تركيب عن طريق المماثلة فيكون "الشّبه منتزع من مجموعها، من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شطر من شطر، حتى إنّك لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان، أخلّ ذلك بالمعزى من التّشبيه".¹¹ ويقوم التّمثيل في العادة على ركّني المشبه والمشبه به، إلّا أنّهما في التّمثيل يكونان صفة أو حالا أو قصّة لكن "لا تجد في الفرع نفس ما في الأصل من الصّفة وجنسه وحقيقته، ولا يحضرك التّمثيل أوصاف الأصل على التّعيين والتّحقيق، وإنّما يخيّل إليك أنّه يحضرك ذلك (...). فصار وزان ذلك أنّ المرأة تخيل إليك أنّ فيها شخصا ثانيا صورته صورة ماهي مقابلة له، ومتى ارتفعت المقابلة، ذهب

عنك ما كنت تتخيله"،^{1 2} ليبدأ المعنى يتركز ويتسع ليصوّر لنا مشهداً روعة في الخيال. وبيتدئ أسلوب التمثيل في الغالب بـ (مَثَل) بفتح العين لا تسكينها فلا يوضع المثل من حيث المعنى بالفتح موضع المثل بالتسكين، لأنّه ليس أداة تشبيه^{1 3}، فقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ}^{1 4} وغيرها من الآيات التي جاء فيها لفظ المثل بالتسكين يعني الشّبه أمّا لفظ المثل بالفتح فيعني الصّفة والحال والقصة، فقوله: [إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ] أي شبيهم، ولا يمكن قول أنا بشر في حالكم وفي مثل صفتكم، أو أنّها جاءت في سياق القصص.

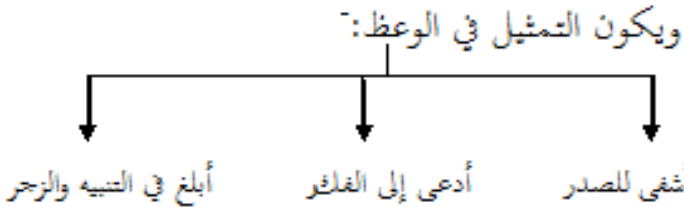
أمّا قوله تعالى: { مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ }^{1 5} أي [صفة الجنة التي وعد المتّقون] ولا يمكن قول: [الجنة التي وعد المتّقون تشبه ما في الدّنيا من أنهار..]، لأنّ التشبيه هنا غير " واقع في العيان وما يدركه الحس" ^{1 6} إذ خرج التشبيه الذي وجه الشّبه فيه منتزع من متعدّد عن نطاق ما تراه العين، بل يمكن القول: صفة الجنة التي وعد الله المتّقين تقارب في شبهها بما يراه ويعقله الإنسان من ماء ولبن وخمر وعسل الدّنيا لكنّها أنهار فجمع بين شيئين (الجنة وما فيها من أنهار من ماء.. وبين المحسوس من أنهار وماء وخمر ولبن وعسل) " في حكم تقتضيه الصّفة المحسوسة لا في نفس الصّفة (...) وذلك أنّك بالتمثيل في حكم من يرى صورة واحدة، إلّا أنّه يراها تارة في المرأة، وتارة على ظاهر الأمر".^{1 7} فتصبح هنا بحاجة إلى تأويل بحيث لا تتصوّر معنى صفة الجنة عن طريق العقل، لأنّ التشبيه تجاوز العين وجاء عن طريق العقل.

فليس من صفة وجنس وحقيقة الفرع (الجنة) ما في الأصل (الدّنيا) بل أعطاك من الجنة دنيا أخرى، فأصبحت في حكم من يرى صورة واحدة عن طريق التّخيل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۚ ۱٨

أي أن الله لا يستحي أن يأتينا بحكاية ما وقع في كلام الكفرة: ما يستحي رب محمد أن يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت. فرد أن جاءهم بمثل آخر حكاية عن البعوضة فما فوقها، أي حال الكفار كحال البعوضة تحيا ما جاعت وتموت ما شبع، كذلك أهل الدنيا إذا امتلأوا منها هلكوا. 19 فرد الكافرون باستفهام إنكاري: ماذا أراد الله بهذا مثلاً. ماذا أراد بهذه الحكاية عن البعوضة.

وتدخل لفظة مثل على المشبه والمشبه به أحياناً، ومن ذلك قوله تعالى: {ومثل الذين كفروا} يظهر المثل في الآية مبهما لا يفصح عن شيء من المعنى مثلهم في ماذا؟ لكن حينما ننظر إلى الآية التي بعده (المشبه به) {كمثل الذي ينْعَقُ بما لا يسمعُ إلا دُعَاءً وَنِدَاءً} 20 يتضح لنا المعنى المراد من هذا التمثيل، فنجد أن الله تعالى "أضاف المثل إلى الذين كفروا ثم شبههم بالرّاعي، ولم يقل كالغنم (...). مثل الذين كفروا كمثل البهائم التي لا تفقه ما يقول الرّاعي أكثر من الصّوت". 21



الشكل 1: حجاجية التمثيل في الوعظ. 22

ومن ذلك قوله تعالى: {مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون} 23. ومنطلق هذه المعرفة

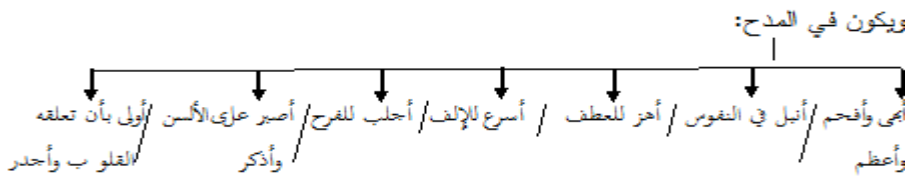
أيضا من المعقول ولا تقف عنده، لتتجاوز إلى الحس الذي تراه العين، ويعقله القلب، ويرتسم في الذهن.

المقدمة 1: المعرفة العقلية مثلهم (المنافقون)

المقدمة 2: المعرفة الحسية كمثل الذي استوقد نارا ("أنه أظهر الإسلام فحقن به دمه ومشى في حرمة وضياؤه ثم سلبه في الآخرة عند حاجته إليه".²⁴)

النتيجة 1: فساد العقاب.

النتيجة 2: الخسران والهلاك في الدنيا والآخرة.



الشكل 2: حاجية التمثيل في المدح.²⁵

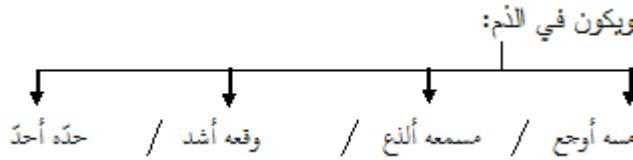
كما أن لفظة مثل قد تدخل على المشبه دون المشبه به، ومن ذلك قوله تعالى: {واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح}²⁶. فشبه حال الدنيا بماء أنزله من السماء فأنبث الزرع ثم اخضر ثم اصفر ففني، وتنطلق هذه المعرفة التي يريد الله من عباده أن يدركوها من المعقول إلى المحسوس.

المقدمة 1: المعرفة العقلية الحياة الدنيا (لا قيمة لها).

المقدمة 2: المعرفة الحسية كماء .. (الفناء).

النتيجة 1: عدم الاغترار بالدنيا الفانية.

النتيجة 2: الالتفات إلى الآخرة.



الشكل 3: حجاجية التمثيل في الذم. ²⁷

وفي قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ } ²⁸

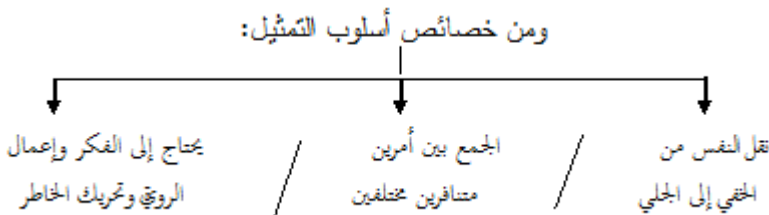
المقدمة 1: المعرفة العقلية كلمة طيبة (" كلمة الإسلام " . ²⁹)

المقدمة 2: المعرفة الحسية شجرة طيبة ("الهيئة الحاصلة من البهجة في الحس والفرح في النفس، وازدياد أصول النفع باكتساب المنافع المتتالية بهيئة رسوخ الأصل، وجمال

المنظر، ونماء أغصان الأشجار، ووفرة الثمار، وممتعة أكلها" . ³⁰

النتيجة 1: الانتفاع.

النتيجة 2: الفوز والنجاة في الدنيا والآخرة.



الشكل 4: خصائص أسلوب التمثيل ³¹

وقد تدخل لفظة مثل على المشبه به دون المشبه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ

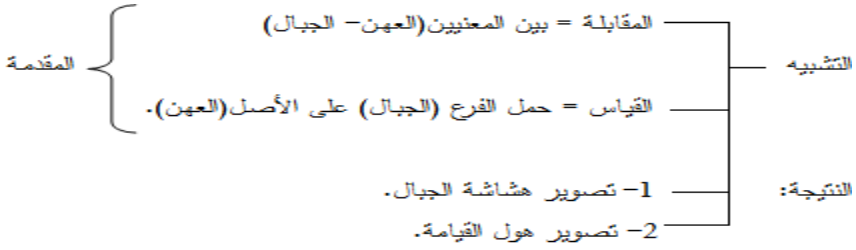
نَبَاتُهُ، ثُمَّ يَبْجُ فَرْتُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا³² وهذا مثل ضربه الله للناس، بأن شبه حال الدنيا من لعب ولهو وحب للزينة والتفاخر، وحب التكاثر في الأموال والأولاد في حال حياتهم، فلما انقضى أجلهم سلبت منهم الحياة فلم تنفعهم ملذات تلك الحياة كذلك اضمحل النبات المخضر فصار حطاما بعد أن نزل الغيث ومكث في الأرض وأُخرج النبات وأعجب الزّراع به.

فإذا دخلت لفظة مثل على المشبه دون المشبه به كان التأكيد على المشبه وإذا دخلت لفظة مثل على المشبه به دون المشبه كان التأكيد على المشبه به، أما إذا دخلت لفظة مثل على المشبه والمشبّه به فالتأكيد يقع عليهما الاثنين.

3. البيان الحجاجي بالتشبيه: يعتبر التشبيه تقنية من التقنيات التصويرية التي تقوم على عقد المقابلة بين صورتين أو مفهومين أو معنيين بينهما وجه شبه غير منتزع من متعدد (مفرد)، لغاية التأثير والاستمالة، و" التشبيه جارٍ في الكلام، أعني كلام العرب، حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يُبعد".³³ وهذا ما جعل الكثير من أهل البلاغة يعظمون "أمر التشبيه لكونه أعلق بالطبع والدّ للنفس، وله نفع عظيم في باب الخطابة".³⁴

والتشبيه كما عرفه السّجل ماسي (ت:704هـ): " هو القول المخيل وجود شيء في شيء إما بأحد أدوات التشبيه الموضوعة له كالکاف وحرف كأن أو مثل، وإما على جهة التّبدیل والتّنزِيل".³⁵ وهو على عكس التمثيل تجد في الفرع نفس ما في الأصل من الصّفة وجنسه وحقيقته، ف" ترى صورتين على الحقيقة"³⁶.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾³⁷.

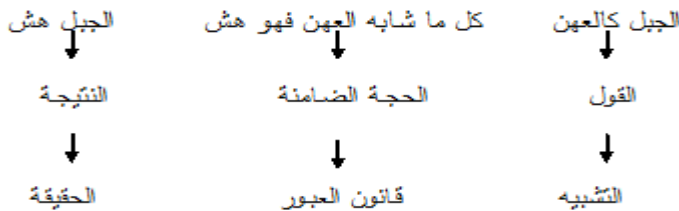


الشكل 5: مخطط توضيحي.

فإن قيل: أين ممكن التأثير في هذا التشبيه؟

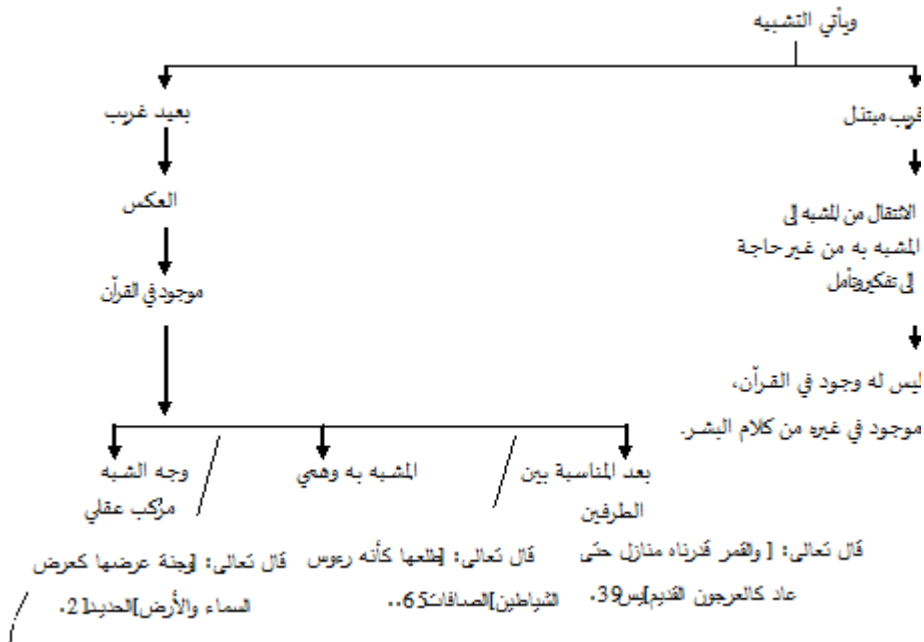
أقول: ممكن التأثير في ذلك الاستدلال الذهني، أي تلك النقلة من الصورة الأولى (هياة الجبال من ضخامة ومتانة وصلابة)، إلى صورة ثانية (الصّوف المضرق بين أجزائه الهش)، وبعقد تلك المقابلة أو المقارنة بين الصّورتين على اختلافهما يتأثر المتلقي بمدى هول مشهد القيامة، أن صيّرت القيامة الجبال الرأسيات الضخمة الصلبة المتينة شبيهة بالصّوف المنفوش الهش. هذه النقلة المتباعدة بين الشيئين في الحقيقة، ثم الربط وعقد المقارنة بينهما، هو في حد ذاته إمتاع يفضي إلى الإقناع.

وما هو ملاحظ- أيضا- أنّ التشبيه هنا لا يقوم على مبدأ الاستدلال المنطقي فلا " يأخذ عملية عقلية استنباطية محضة، بل عملية خطابية يتم بموجبها اتخاذ علامة مادية أو معنوية وجعلها شاهدا ومثالا على شيء، أو صفة من صفاته ". 38



الشكل 6: مخطط توضيحي.

كما اعتبر التشبيه آلية حجاجية، يأتي كنتيجة تدعم الطرح المقدم من خلال تأدية المعنى وعرضها في تلك الصورة المغايرة لصورة المعنى الحقيقي، مما يكسبها جمالية وإقناعاً أكثر " ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيالا حسنا يدعو إلى التّغريب فيها، وكذلك إذا شبهتها بصورة أقبح منها، كان ذلك مثبتاً خيالا قبيحا يدعو إلى التّنفير عنها " 39.



الشكل 7: مخطط توضيحي

(أ) يُعَدُّ الْمُنَاسِبَةُ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ⁴⁰ : - والانتقال هنا في المعرفة في قوله تعالى: {وَالْقَمَرُ قَدَرْنَاهُ مِنْ أَرْجَائِهِ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} من المحسوس إلى المحسوس جاء لبيان صفة المشبه، مع ما لبعد المناسبة بين منازل القمر في سيره وبين العرجون القديم لخفاء وجه الشبه فيه، " وعاد بمعنى صار للرائي كأنه

العود الذي تخرجه النخلة فيكون الثمر في منتهاه وهو الذي يبقى متصلاً بالنخلة بعد قطع الكباسة منه وهي مجتمع أعواد الثمر^{1 4}، ولم يكتف بذكر لفظة التشبيه (العرجون) فأردفها بكلمة (القديم) حتى يكتمل الوصف ويتضح المعنى ويبرز إلى الحس والمشاهدة في أتم وجهه. "والقديم هو البالي لأنه إذا انقطع الثمر تقوس واصفرّ وتضاءل فأشبهه صورة ما يواجهه الأرض من ضوء القمر في آخر ليالي الشهر وفي أول ليلة منه"^{2 4}.

(ب) المشبه به وهمي: الانتقال هنا في المعرفة في قوله تعالى: {طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} هو من المعقول إلى الموهوم غير المعروف فـ "العرب تشبه القبيح الصورة بالشيطان (...)" وإن لم يروه لما أنه مستقبح جداً في طباعهم لاعتقاده أنه شر محض لا يخلطه خير فيرتسم في خيالهم بأقبح صورة (...) وحاصله أنه لا يشترط أن يكون معروفاً في الخارج بل يكفي كونه مركوزاً في الذهن والخيال"^{3 4}.

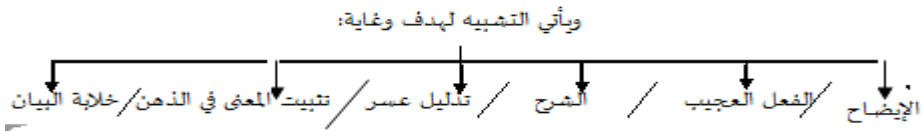
فليست الغرابة من تشبيه الطلع برؤوس الشياطين فقط، بل الغرابة والمقصود في هذا التقييد بأن شبهه بأمر زائد على المعلوم والمتعارف، فيكون سبب الغرابة في هذا المثال لقلة رؤية العيون له، مما يستدعي إلى طول إمعان وفكر ودقة نظر.

وقد جزم حازم (ت: 684هـ) في المنهاج على أن أداة التشبيه كأن أبلغ من أداة الكاف^{4 4} وهذا الوصف البالغ حد العظم في الدّم ربما جاء اقتضاء لسياق الحال.

(ج) وجه الشبه مركب عقلي: ومن ذلك قوله تعالى: {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} فالانتقال فيه في المعرفة يكون من المعقول إلى المحسوس لتقرير صفة المشبه في ذهن السامع من خلال تصويره تصويراً حسياً مشاهداً، أي "إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة (...)" والجامع العظم، وفائدته التشويق إلى الجنة بحسن الصفة وإفراط السعة"^{5 4}.

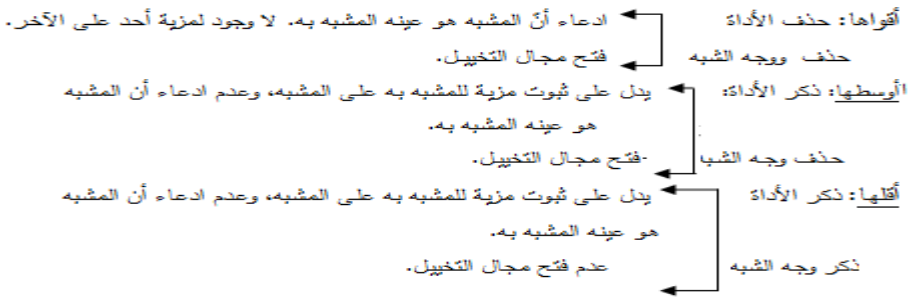
وتأتي استعمالات التشبيه في الآيات لتبيان:

أن نتائج ❖ الحجة (ب) الصّورة الفنيّة: (الرجون القديم..رؤوس الشياطين..السّماء والأرض..)
أقوى حجة من: نتائج الحجة (أ) الحقيقة: (القمر قدرناه منازل..طلعها.. الجنة)

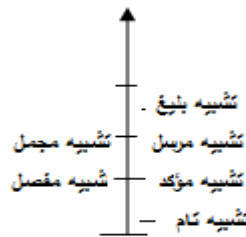


الشكل 8: غاية التشبيه.

وتأتي مراتب التشبيه من حيث السّلم البلاغي كالآتي: ⁶ 4



الشكل 9: مخطّط توضيحي.



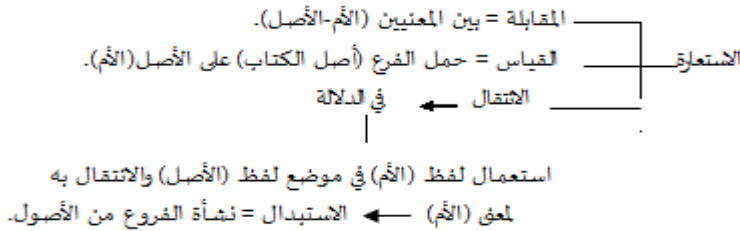
الشكل 10: السّلم البلاغي.

مع عدم إغفال عنصر السّياق، إذ هو المؤطّر لعملية الوقوف على مراتب التشبيه في السّلم الحجاجي. والقرآن إذ يطالعنا بمثل هذه التشبيهات "يسير بأسلوب التشبيه إلى غاية بعيدة من الصّدق والقوّة، وروعة التأثير، وجودة التّصوير".^{4 7} ويصبح لدينا وفق هذا الطّرح قناعة أنّ "التّشبيه تقنية حجاجية أراد المتكلّم باستخدامها تقوية المعنى المراد توصيله".^{4 8}

4. البيان الحجاجي بالاستعارة: الاستعارة هي استعمال اللفظ في غير موضعه لعلاقة المشابهة - أي هو تشبيه حذف أحد طرفيه المشبه أو المشبه به - وهذا التّجاوز يكون بقريضة تدلّ على عدم إرادة المعنى الأصليّ ولا أصبح اللفظ حقيقة. والاستعارة: "ضرب من التّشبيه ونمط من التّمثيل، والتّشبيه قياس والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول وتستفتي فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والأذان".^{4 9}

ويعرفها ابن سنان (ت: 466هـ) على أنّها "تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النّقل لإبانة".^{5 0} والنّقل هنا ليس مرتبطاً بالاسم بل في ادّعاء معنى الاسم للشيء كما ذكر عبد القاهر الجرجاني.^{5 1} أي الانتقال في الدّلالة من الاستعارة إلى حقيقتها، على عكس التّشبيه فهو قائم على المقابلة والقياس دون الانتقال؛ وهذا لحضور المشبه والمشبه به.

فلو قلت مثلاً: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ}^{5 2}، فالاستعارة ليست في نقل الاسم (الأمّ)، ولكن نقل معنى الاسم (الأمّ) والمتمثّل في معنى (الأصل) "فإنّ حقيقته: لوإنّه في أصل الكتاب، فاستعير لفظ الأمّ للأصل، لأنّ الأولاد تنشأ من الأمّ كما تنشأ الفروع من الأصول، وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمبرئي حتى يصير مرثياً فينتقل السّامع من حدّ السّماع إلى حدّ العيان، وذلك أبلغ في البيان".^{5 3}



الشكل 11: مخطط توضيحي.

والاستعارة قائمة في جوهرها على خصيصتين هما: الاستدلال المنطقي وخاصة فوق الإبطال.

(أ) الاستدلال المنطقي:⁵⁴ يعتمد الاستدلال المنطقي على الربط بين مقدّمات تقتضي الترتيب للوصول بها إلى نتيجة قد تكون صريحة أو ضمنية ومن ذلك قولك:

- تشبيه:

فلان يشبه الأسد: المقدمة الأولى مشكوك فيها
كلّ ماشابه الأسد فهو شجاع: المقدمة الثانية مشكوك فيها
ليس كلّ من شابه الأسد فقد بلغ في القوّة نهايتها: النتيجة
- استعارة:

رأيت أسدا: المقدمة الأولى مشكوك فيها.

الأسد قوي شجاع: المقدمة الثانية يقينية.

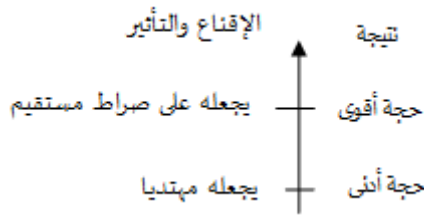
كل من شابه الأسد فقد بلغ في القوّة نهايتها: نتيجة

ولهذا السبب كانت الاستعارة أوقع في النفوس من التصريح بالتشبيه.

فالاستعارة حققت بهذا غايتين: الأولى الإيجاز، والثانية المهارة في إبراز المعنى لغاية التأكيد والتشديد على شجاعة الرجل. وعليه تصبح الاستعارة ضربا من القياس؛ والقياس: "عملية فكرية ينعكس فيها العقل ذاته، أو ينعكس فيها على ما وضع من قواعد وشروط من ذاته يعتبرها أصدق صورة للاستدلال العقلي".⁵⁵ والاستعارة عمدة الخطاب البلاغي وأبرزها قيمة وهي: "من الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية بل إنّها من الوسائل

التي يعتمد عليها بشكل كبير جداً، ما دما نسلم بفرضية الطابع المجازي للغة الطبيعية".⁵⁶

(ب) العلو في السلم البلاغي: ما يميّز الاستعارة أنّها تنصدر السّلم البلاغي مقارنة بالقول العادي. فلو أخذنا مثلاً قوله تعالى: {مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يجعله على صراطٍ مُسْتَقِيمٍ}⁵⁷ فقلنا ومن يشأ يجعله مهتدياً - كلام على حقيقته - لما أمكن للمتلقّي أن يتصوّر شأن الهداية بتلك الصّورة التي جاءت على هذا النّحو: {ومن يشأ يجعله على صراطٍ مُسْتَقِيمٍ} - استعارة - لماذا؟ لأنّ النّفس البشرية تميل للأُمور الأغرّب، وللأشياء الغامضة البعيدة تكون أقرب فكلّما أُعْمِلَ العقل في النّظر إلى المعاني، وتوقّف الدّهْن وتأمّل في ما تحويه المباني اتسعت رقعة الخيال، ولقيت النّفس استحساناً ووجدت لها متنفساً ووقعا ولذة وهنا ترسخ الفكرة ويحصل الإقناع والإقناع " فالاستعارة لا تكون حجةً لمجرّد كونها تحيي اللغة المؤلفة، بل هي حية لأنّها تعطي دفعة قوية للخيال كي يفكر أكثر على مستوى التّصور، أي إنّها في التّحليل الأخير تجعلنا نحيا أكثر".⁵⁸



الشكل 12: السلم الحجاجي.

وتعليقاً على هذا المخطّط نجد أنّ الإخبار حاصل في الضّربين من الكلام: يجعله مهتدياً، ويجعله على صراط مستقيم، لكنّ القول الثّاني أكثر جمالاً وأشدّ إقناعاً وتأثيراً وأقوى حجةً وبياناً، والسّرّ في ذلك يعود إلى خاصيّة الغموض في الصّور الاستعارية، وهذا راجع إلى "أنّ اللفظ لم ينصهر مع المعنى وأنّ المعنى الأوّل لا يقود في سهولة إلى المعنى الثّاني".⁵⁹ وبالتّأكيد على أنّ الاستعارة قوّة حجاجية تعلقو السلم الحجاجي مقارنة بالخطاب العادي يضاف إليها خاصيّة أخرى وهي:

(ج) أنها فوق الإبطال:

ونعني بفوق الإبطال أي: "عدم ورود دليل مضاد بعد القول الاستعاري يخدم النتيجة المعاكسة".⁶⁰ وهذا ما أكسبها أيضا خاصيةً حجاجيةً إضافيةً.

فلو قلنا مثلا: زيد شجاع لكنه متهور

مقدمة: زيد شجاع (تركيب حقيقي) خال من الاستعارة

لكن: رابط حجاجي. يثبت للثاني ما نفاه عن الأول، أي أثبت التهور لزيد مع نفي الشجاعة عنه وهي من جنس التهور.

النتيجة: السياق الذي جاء بعد الرابط مقبول (متهور)، زيد شجاع متهور.

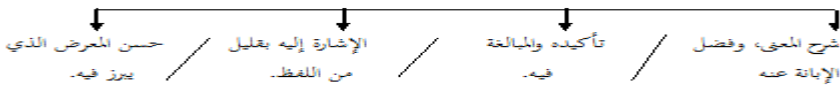
ولو قلنا مثلا: أعجبت بأسد لكنه متهور

مقدمة: أعجبت بأسد (تركيب استعاري) غير حقيقي.

لكن: رابط حجاجي. يثبت للثاني ما نفاه عن الأول، أي أثبت التهور للأسد مع نفي الأسدية عن زيد وهي ليست من جنس التهور.

النتيجة: السياق الذي جاء بعد الرابط غير مقبول (متهور)، أعجبت بأسد لكنه متهور.

يتأتى الاستعارة لغاية:-



الشكل 13: غاية الاستعارة.⁶¹

5. خاتمة: نصل في نهاية هذا البحث المقتضب إلى النتائج التالية:

- ربط الصورة البيانية عن طريق المشابهة بوظيفة الإقناع لا يعفيها عن تأدية وظيفة الإمتاع، فلطالما شكل الإمتاع طريقا أفضى للإقناع؛
- التأكيد على أن الصورة البيانية بالمشابهة تقنية أسلوبية تسعى في جوهرها لا إلى تغيير المعنى، وإنما إلى تأديته بطريقة غير ما هو عليه في الحقيقة وهذا لغاية جعله أكثر جمالا وتأثيرا وإقناعا وتثبيتا في ذهن المتلقي

- التأكيد على أن الصورة البيانية عن طريق المشابهة في القرآن لا تخضع لرغبة المتلقي في تأويل المعاني، بل هي التي تخضعه جماليا لعملية التأويل من خلال ظل خاص يلحظه الحس، وتستشفه النفس؛
- إبراز حجاجية الصور البيانية وبيان ميزة كل منها على انفراد، من تمثيل وتشبيه واستعارة، والوقوف على خصائصها تنظيرا وتطبيقا، وإن كان تلقي هذه الصور البيانية في القرآن يختلف باختلاف وعي متلقيها؛
- الكشف عن المزية في استخدام أسلوب التصوير البلاغي عن طريق المشابهة بدل الحقيقة، من خلال ما تهبه الصورة من طرق توليد المعاني وتشويق، ومتعة في الانتقال بالذهن من معنى ظاهر إلى معنى خفي، ينقلك إلى عوالم منفصلة عن عالم الحقيقة ليحدث هزة في النفس تفضي للإقناع وإن كانت التراكيب الحقيقية في الخطاب القرآني المعجز لها أبعادها الجمالية والإقناعية أيضا على حسب المقام؛
- الكشف عن المزية في استخدام صورة بيانية بدل غيرها، من خلال ما تفيده من معنى لا تفيده صورة أخرى بدلها؛
- الوقوف على حقيقة أن الصورة البيانية لا توجب المزية إلا بالنظر إلى الصورة التي حدثت في المعنى، والخاصية التي تجددت فيه لا للفظ، وذلك باعتماد المؤلف ضربا خاصا من النظم والتركيب، ووجها مغايرا من التأليف والترتيب
- التأكيد على أن الوصول إلى المظهر الحجاجي في الصورة البيانية عن طريق المشابهة كثيرا ما يوجد مضمرا لا يفصح عن معناه إلا بكفاءة المتلقي اللغوية والبلاغية.

6. هوامش:

- ¹ - ينظر، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أسرار البلاغة تح: أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، السعودية، ط1، 1991م ص: 27.
- ❖ وفي كتابه الدلائل يذهب إلى تأكيد هذا المعنى في معرض حديثه عن فضل الصور فيعتبرها: "الأقطاب التي تدور البلاغة عليها. والأعضاء التي تستند إليها الفصاحة". (عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بمصر، دار المدني بجدة، ط3، 1992م ص: 379).
- ² - محمد أبو موسى، التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، مكتبة وهبة القاهرة، ط3 1993م، ص: 25.
- ³ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 95.
- ⁴ - المصدر نفسه، ص: 29.
- ⁵ - جلال الدين أبو عبد الله محمد الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبدیع)، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط1، 2003م، ج4 ص: 131.
- ⁶ - محمد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبهات في علم البلاغة، تح: عبد القادر حسين مكتبة الآداب: علي حسن، ميدان أوبرا - مصر، طبعة جديدة 1997م. ص: 179.
- ⁷ - أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط - المغرب، ط1، 1980م. ص: 255.
- ⁸ - « I analogie est un moyen d argumentation instable. en effet celui qui en rejette les conclusions tendra a qu'il n y a même pas d analogie, et minimisera la valeur de l énoncé en le réduisant a une vague comparaison ou a un rapprochement purement verbale ». Traite de l'argumentation-la nouvelle rhétorique-, Chaïm Perlman et Lucie olbrechts tyteca, préface de michel meyer-5eme éditions de l'université de bruxelles, 2000, p : 527.
- ⁹ - جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار مصر للطباعة، الفجالة - مصر، (د ط)، (د تا). ص: 484.
- ¹⁰ - المصدر نفسه، ص: 484.
- ¹¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 109.

- ¹² - المصدر نفسه، ص: 237.
- ¹³ - محمد جابر الفياض، ينظر، الأمثال في القرآن الكريم، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض ط2، 1995م، ص: 143.
- ¹⁴ - [الكهف: 110]
- ¹⁵ - [محمد: 15]
- ¹⁶ - المصدر السابق، ص: 236.
- ¹⁷ - المصدر نفسه، ص: 236.
- ¹⁸ - [البقرة: 26].
- ¹⁹ - ينظر، شهاب الدين محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، (د ط)، (د تا). ج 1 ص: 206.¹⁹
- ²⁰ - [البقرة: 171].
- ²¹ - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب ط2 2010م. ص: 112.
- ²² - ينظر، عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 116.
- ²³ - [البقرة: 17].
- ²⁴ - أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1993م، ج 1، ص: 209.
- ²⁵ - ينظر، المصدر السابق، ص: 115.
- ²⁶ - [الكهف: 45]
- ²⁷ - ينظر، عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 115.
- ²⁸ - [إبراهيم: 24].
- ²⁹ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، (د ط) 1984م. ج 13 ص: 224.
- ³⁰ - المرجع نفسه، ج 13، ص: 224.
- ³¹ - ينظر، عبد الفتاح لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2 2004م. ص: 60- 64.
- ³² - [الحديد: 20].

- 33- أبو العباس يزيد بن محمد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تح: عبد الحميد هنداوي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة السعودية 1998م، ج2، ص:396.
- 34- محمد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبهات في علم البلاغة، تح: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب: علي حسن، ميدان أوبرا- مصر، طبعة جديدة 1997م. ص:132.
- 35- السجلмасي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص:220.
- 36- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص:236.
- 37- (المقارعة:5).
- 38- ينظر، حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، مجلة عالم الفكر الكويت يوليو 2001م ع1، مج20، ص:124.
- 39- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدّمه وعلّق عليه: أحمد الحوفي ويدوي طبانة، دار النهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ط2 (د تا)، ج2، ص:123.
- 40- ❖ بعد المناسبة هنا بمعنى: الخفاء في الانتقال من المشبه على المشبه به، وليس عدم العلم به في عرف الناس.
- 41- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج23، ص:22.
- 42- المصدر نفسه، مج23، ص:23.
- 43- الألوسي، روح المعاني، ج23، ص:95.
- 44- ينظر، أبو الحسن حازم القرطاجني، منهج البلاغة وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط3، 1986م ص:390.
- 45- ينظر، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص:357.
- ❖ النتائج من حيث التأثير لا من حيث الاستدلال الذي يقتضي مقدمات تليها نتائج.
- 46- ينظر، محمد الجرجاني، الإشارات والتنبهات في علم البلاغة، ص:160.
- 47- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج4، ص:136.
- 48- محمد مشبال، بلاغة النص التراثي (مقاربة بلاغية حجاجية- بلاغة رسالة المفارقة-)، دار العين للنشر، القاهرة، ط1، 2013م. ص:115.
- 49- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص:20.
- 50- أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1 1982م. ص:134.

- 51 - ينظر، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 337.
- 52 - [الرّخرف: 4]
- 53 - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص: 359.
- 54 - ينظر، فخر الدّين محمد بن عمر بن الحسين الرّازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تح: نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر، بيروت، ط1، 2004م. ص: 163.
- 55 - علي سامي النّشار، المنطق الصّوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، مصر، ط5، 2000م. ص: 374.
- 56 - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، درب سيدنا، الدّار البيضاء، ط1، 2006م ص: 105.
- 57 - [الأنعام: 39]
- 58 - محمد الأمين الطّلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النّقد المعاصر)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، ط1، 2008م. ص: 241.
- 59 - أحمد عبد السيّد الصّاوي، مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنّقاد والبلاغيين (دراسة تاريخية فنية)، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1988م. ص: 48.
- 60 - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، درب سيدنا، الدّار البيضاء، ط1، 2006م. ص: 106.
- 61 - ينظر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصّناعتين (الكتابة والشعر)، تح: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، بيروت، ط1، 1952م. ص: 268.